

دروس من نهج البلاغة ادراك الموقف والاستفادة من الفرصة

الشيخ محمد صالح

٤

« ثم أعلم يا مالك ، اني قد وجَّهتك إلى بلادٍ قد جرت عليها دولٌ قبلك من عدلٍ وجورٍ ، وإن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظرُ فيه من أمورِ الولاة قبلك ، ويقولون فيك ما كنت تقولُ فيهم . وإنما يُستدلُّ على الصالحين بما يُجري اللهُ لهم على السُننِ عبادته . »

إدراك الموقف :

لإدراك الموقف المناسب ، والذي يدل في ذاته على اليقظة والحنكة ، ثلاثة عوامل :

١ - معرفة الزمان : إن معرفة الزمان وتقديره موضوع ذو أهمية كبيرة ، حتى يمكن القول إنه مرتبط بحياة الناس إلى حد كبير . وكما سبق أن ذكرنا أن الزمان يؤثر كثيراً في وضع المسكن والصحة والسلاح ووسائل العيش وسائر مظاهر التمدن . وهذه المعرفة مرتبطة بالوظيفة وبكيفية أدائها . يقول الإمام الصادق (ع) حول هذا الموضوع :

« العالمُ بزمانه لا تهجمُ عليه اللوابسُ . »

ويقول أيضاً :

« على العاقل أن يكون مُقبلاً على شأنه وعارفاً بزمانه . »

على الإنسان العاقل والذكي أن يعرف حدود عمله وحاله وطبعه ، وأن يعرف زمانه . وهذا ما يُقبل عليه الأئمة (عليهم السلام) ؛ فهم يدركون وظائفهم وأعمالهم المختلفة ضمن الأزمنة المختلفة والمتباينة .

٢ - معرفة المحل والمكان : يقدر الناس المكان الذي يعيشون فيه سواء من حيث الطبائع والأخلاق ، أو من حيث الأحداث التاريخية الماضية ، والموقع الجغرافي الذي يلائمهم ، وكذلك من حيث نشاطاتهم وفعاليتهم في ذلك المكان .

٣ - معرفة الإتجاه الذي يتحلى به المرء . وهذا كله له علاقة وتأثير في إدراك الموقف .

على كل فرد يدرك العوامل الثلاثة لإدراك الموقف المناسب أن يقدر موضعه وجبته . ولقد انعكس الموقف المناسب على أمير المؤمنين (ع) في زمان خلافة الخلفاء الراشدين ، فظهر ذلك في نهج البلاغة واضحاً بقوله :

« صَبْرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَدَى وَفِي الْحَلْقِ شَجَى ، أرى تراثي نَهَباً » (١) .

ولكن بعد مقتل عثمان تسنم زمام الخلافة . فبين سبب قبوله الخلافة قائلاً :

« لولا حضورَ الحاضر وقيامَ الحجة بوجودِ الناصر وما أخذ الله على العلماء أن لا يُقارَوا على كِظَّةِ ظالمٍ ولا سَغَبِ مظلومٍ لأَلقيتُ حبلها على غاربها ... » (٢) .

كان الإمام علي (ع) يكتب إلى عمال دولته وضمن رسائله يحدد إدراك المواقف ويؤكددها . ومثال على ذلك نورد فيما يلي ما كتبه (ع) إلى قثم بن العباس أمير مكة :

« أما بعدُ ، فإن عيني - بالمغرب - كتب إليّ يُعلمني أنه وُجّه إلى الموسم أناسٌ من أهل الشام العُمي القلوب ، الصمّ الأسماع ، الكُمه الأبصار الذين يَلتمسون الحق بالباطل ، ويطيعون المخلوق في معصية الخالق .

ويَحْتلبون الدنيا دَرّها بالدّين ، ويشترون عاجلها بأجل الأبرار المتّقين . ولن يفوز بالخير إلا عامله ، ولا يُجزى جزاء الشرِّ إلا فاعله . فأقم على ما في يدك قيامَ الحازم الصليب ، والناصح اللبيب ، التابع لسلطانه ، المطيع لإمامه . وإياك وما يُعتذر منه ، ولا تكن عند النعماء بطراً ولا عند البأساء قسلاً والسلام » (٣) .

وحول أمر إدراك المواقف المناسبة ذكّر الإمام علي (ع) مالكا الأشر
النقاط الثلاث :

فحول الزمان قال له :

« إني وجهتك إلى بلادٍ قد جرت عليها دولٌ قبلك من عدلٍ وجورٍ ، وإن
الناسَ ينظرون من أمورك » .

وقد أفاد من القرآن الكريم حول هاتين الحكومتين . أولاهما حكومة يوسف
النبي (ع) والآيات القرآنية تبين عظمة هذا النبي وعدله ، فحين عرف عزيز
مصر يوسف قال له : ﴿ إنك اليومَ لدينا مكينٌ أمينٌ ﴾ (٤) .

والثانية فرعون المستبد الظالم المستعلي ، ويوضح القرآن الكريم هذا
العنصر الفاسد العاتي فيقول : ﴿ إن فرعونَ علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً
يستضعف طائفةً منهم يُدبِّحُ أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من
المفسدين ﴾ (٥) .

كما أن القرآن الكريم يقول حول المتكبر والطاغية : ﴿ فاستخفَّ قومهُ
فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ (٦) .

أحداث عبد الله بن أبي سرح :

عندما أرسل عبد الله بن أبي سرح لجباية الضرائب من مصر بأمر من عثمان
أمر كذلك عمرو بن العاص أن يستعد لحرب جيوش الروم . وحارب عمرو بن
العاص جيوش الروم حسب أوامر عثمان بن عفان . فوقع خلاف بين عمرو بن
العاص وعبد الله بن سعد بن أبي سرح داخل مصر . واحتدّ الخلاف بين
الطرفين ، فأرسلا شكائيهما إلى عثمان . وفي هذه الأثناء عزل عثمان عمرو بن
العاص عن مصر ، وأوكل عثمان حكم مصر والإسكندرية إلى عبد الله بن سعد .

واستقر عبد الله بن سعد في دولة مصر ، وشُغل في سنة ٢٧ هـ بحرب
« جرجير » ملك إفريقية وكسره واحتل قسماً من أراضيه . وبما أن عمرو بن
العاص عُزل عن حكومة مصر بأمر من عثمان فقد وجد عليه وحقد على تصرفه ،
وهذا ما دفعه إلى الانضواء تحت راية المخالفين ، وإلى التشهير بكل عمل قصر
فيه الخليفة . وتأزم الموقف بين الرجلين حتى بلغ بعمره الأمر إلى أن طلق زوجته

والتي هي أخت أم عثمان ، وإلى الوقوف مع سعد بن أبي وقاص الذي أخذ كذلك على عثمان بعض تصرفه . واتفق الإثنان على إعلان خلافهما ومناصرة الواحد منهما الآخر^(٧) .

كان عبد الله بن سعد من قبيلة قريش . وهو نفسه الذي أمر رسول الله (ص) في زمان فتح مكة أن يُقتل ، وعثمان شفع له^(٨) . وحينما كان عبد الله بن سعد عامل عثمان على مصر تضايق الناس من تصرفاته السيئة والمعادية للإسلام ، وطالبوا عثمان بعزله عن حكمهم .

ولقد جاء سكان مصر بادية ذي بدء إلى علي (ع) ، وشكوه حاكم مصر . ومن ثم أعلنوا لعثمان عن رغبتهم في إزاحة حاكم مصر عن مصر^(٩) . وبناء على هذا فإن حكام الظلم والجور ، وحكام العدل والحق كانوا موجودين في مصر قبل مالك الأشتر . فمن حكام العدل يوسف ، ومن حكام الجور فرعون وعمرو بن العاص وغيره .

وهذا ما دعا أمير المؤمنين (ع) إلى تقدير موقع هذه الدولة العريقة في القدم ، حيث أرسل مالكاً الأشتر حاكماً عليها وأعلمه أن مصر حكمت من قبل عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد وغيرهما ، وأن شعبها ينتظر منه الكثير . ولا شك أنك تقدّر موقف اليوم وسمته ، وكنت بالأمس قائداً على الجيش . واليوم وقد اخترت لتكون حاكماً لمصر فإن عليك مهمات أكثر أهمية ، ويتوقع الناس منك أكثر أيضاً .

الهوامش

- (١) (٢) نهج البلاغة ، الخطبة الثالثة ، الشقشقية .
- (٣) نهج البلاغة ، الرسالة ١٣ ، ص ٩٣٣ . فيض الإسلام ، شرح الخوئي : ٤٨/٢٠ . في ظلال : ٥٣٥/٣ . شرح البحراني : ٧١/٥ . شرح ابن أبي الحديد : ١٣٨/١٦ .
- (٤) الآية : ٥٤ / يوسف : ١٢ .
- (٥) الآية : ٤ / القصص : ٢٨ .
- (٦) الآية : ٥٤ / الزخرف : ٤٣ .
- (٧) ناسخ التواريخ ، الخلفاء : الصفحات : ٣٣٨ - ٣٣٩ .
- (٨) المصدر السابق .
- (٩) سفينة البحار : ١٣٤/٢ .